طبائع التماسيح

التمساح حيوان في شكل الضب كبير الجسم قصير القوائم طويل الذنب قصير العنق على ظهره ورأسه وذنبه ترس متين كترس السلاحف مؤلف من فلوس قرنية منتظمة صفوفًا متوازية متصلة بعضها ببعض . وفي كل يد من يديه خمس اصابع وفي كل رجل اربع وعلى طرفي فكه الاسفل وجانبي مخرجه واطراف بطنه غدد فيها مفرز مسكي تزيد رائحته ارجًا وقت المزاوجة كأنه يتعطر مثل العرائس . ولمخرجه صمّامان يسدانهما حتى لا يدخلهما الماء اذا

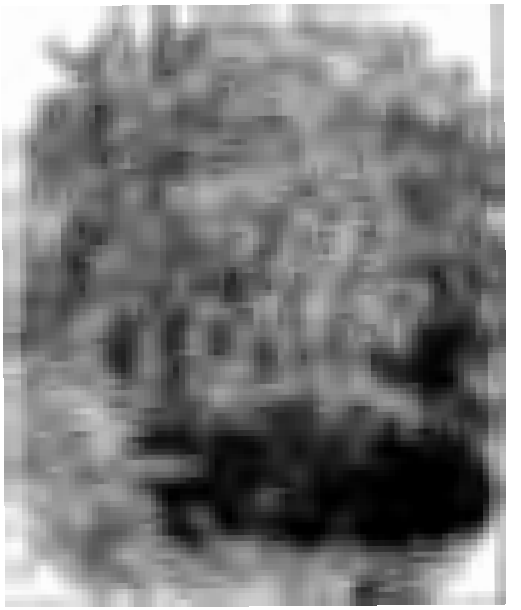

غاص فيه ولعينيه جفن ثالث كالطيور . وشدقه كبير كثير الاسنان وفي مخروطية مجوفة واماميها او تحتها جراثيم اسنان اخرى حتى اذا قُلع واحد منها نبت غيره

وهو من الحيوانات المائية يقيم في الماء اكثر زمانه و يسبح فيه بتحريك ذنبه فهو له كالمجذاف للقارب ولكنه يصعد الى البر ويمشي عليه مشيًا بطيئًا لقصر قوائمه حتى كأنه يجرُّ نفسه جرًّا . طعامه صغار السمك وبعض الحيوانات البرية يخطفها اذا وردت الماء و يغرقها فيه و يمزق لحمها بنفضها وهو قابض عليها باسنانه فان لم يتمزق طعمها في الطين حتى يتعفّن جسمها و يسهل عليه تمزيقه وازدراده

وتمساح المعروفة منه حتى الآن نوعان توجد في افريقية وجنوبي آسيا وشمالي استراليا والاقسام الاستوائية من اميركا وليست خاصة بالنيل ونهر السند كما قال هيرودوتس وتابعهُ كتّاب العرب . ومن اشهر هذه الانواع تمساح النيل وقد كان كثيرًا في النيل من مصبهِ الى مخارجهِ اما الآن فيندر وجودهُ تحت اسوان ولكنهُ يكثر نوعًا وفي كل انهر افريقية حتى رأس الرجاء الصالح وبلاد السنغال ومدغشكر ولم تزل منهُ بقية في بلاد الشام في نهر التمساح بنواحي الزرقاء قرب قيصرية

وتمساح النيل كبير يبلغ طولهُ احيانًا ثلاثين قدمًا واسمهُ عند المصريين القدماء مسايح ولعل الكلمة العربية من الكلمة المصرية القديمة . وكانوا يحسبونهُ رمزًا الى شروق الهلال إما للمعان عينيهِ او لانهما اول ما يبدو منهُ حين خروجهِ من الماء . وكانت حرمهُ لهم لمواطن طيبة ومجيرة اليوم وكان كهنة طيبة يربون تمساحًا صغيرًا يطعمونهُ طعامًا مقدسًا ويطعمون خواتم في اصابعهِ واساور في معاصمهِ وقرابًا في اذنيهِ ويكرمونهُ اكرامًا دينيًا واذا مات حنطوهُ وحفظوهُ في مدافن الآلهة ولا يزال الوف من التماسيح المحنطة الى الآن . ولم يزل بعض الناس يكرم التمساح اكرامًا دينيًا حتى اليوم في غربي افريقية وبلاد الهند

ويختلف تمساح النيل الى كثبان الرمال على ضفتيهِ وينام عليها في النهار نحمًا فاهُ والقطقاط او طائر التمساح يدخل فيهِ ويخرج منهُ على ما ذكرهُ هيرودوتس

ولما كان الكلام الذي ذكرهُ هيرودوتس اصلاً لاكثر ما ذكر بعدهُ عن التمساح رأينا ان نترجمهُ كلهُ هنا قال :

"يصوم التمساح مدة شهور الشتاء الاربعة ويعيش في الماء وعلى البر وانثاهُ تبيض على البر وتقيم اكثر النهار عليهِ وتعود في الليل الى النهر لان ماءهُ احرُّ من الندى ومن الهواء البتة ليلاً . وهو اذا ولد كان اصغر الحيوانات ثم يكبر فيصير اكبرها كلها لان بيضتهُ اكبر قليلاً من بيضة الاوز وصغارهُ صغيرة كبيضهِ ولكنها اذا بلغت اشدها صار طول الواحد منها سبع عشرة ذراعًا او اكثر . وعينا التمساح مثل عيني الخنزير واسنانهُ كبيرة وفي كل انياب بحسبها مناسب لجرمهِ وليس لهُ لسان خلافًا لغيرهِ من انواع الحيوان . ولا يمكنهُ ان يحرك فكهُ الاسفل وذلك خاصٌّ بهِ فيهِ وبالحيوان الوحيد الذي يحرك فكهُ الاعلى لا الاسفل وعلبهُ مخالب قوية وحراشف على ظهرهِ لا يخرقها شيء وهو اعمى لا يبصر اذا كان في الماء واذا خرج منهُ صار بصرهُ حادًا جدًا . ولقيامهِ في النهر يمتلئ فمهُ علقًا وكل الحيوانات والطيور تهابهُ الا الطائر المسمى بالتروشلوس (العداء) فانهُ معهُ على سلام ولهذا الطائر فضل عليهِ لانهُ اذا خرج

من الماء واقام على الارض فتح فاهُ متجهاً الى جهة النسيم الغربي فيدخل الثروشلوس فاهُ و يأكل ما فيهِ من العلق فيستفيد التمساح من ذلك ولا يؤذي هذا الطائر "

ثم ذكر اكرام المصريين لهُ وتحنيطهم اياهُ وكيفية صيدهِ الى غير ذلك مما يرى مفصلاً في كتابهِ

ويؤخذ على هيرودوتس ان التمساح لا يحرك فكهُ الاعلى كما قال وتناقلهُ كتَّاب العرب عنهُ بل يحرك رأسهُ كلهُ الى الاعلى حينما يقبض على فريستهِ ولكنهُ يحرك فكهُ الاسفل ايضاً . ولا دليل على انهُ لا يرى تحت الماء . وقصة الطائر الذي يدخل فاهُ صحيحة كما سيجيء ولكن لا دليل على انهُ يخرج العلق من فيهِ

وقال عبد اللطيف البغدادي الذي نشأ في القرن الثاني عشر للميلاد " والتماسيح كثيرة في النيل وخاصة في الصعيد الاعلى وفي الجنادل فانها تكون على الماء وبين صخور الجنادل كالدود كثرةً وتكون كباراً وصغاراً و ينتهي في الكبر إلى نيف وعشرين ذراعاً طولاً . وتوجد في سطح جسدهِ ثما يلي بطنهُ سلعة كالبيضة تحتوي على رطوبة دهنية وهي كنائجة المسك في الصورة والطيب . وخبرني الثقة انهُ يتدر فيها ما يكون في عانة المسك لا ينقص عنهُ شيئاً . والتمساح يبيض بيضاً شبيهاً ببيض الدجاج . ورأيت في كتاب منسوب إلى ارسطو ما هذه ترجمتهُ قال التمساح لا يعمل في جلدهِ الحديد وان فتار رقبتهِ الى ذنبهِ عظم واحد ولهذا اذا انقلب على ظهرهِ لم يقدر ان يرجع . قال ويبيض بيضاً طويلاً كالاوز و يدفنهُ في الرمل فاذا خرج كان كالجراذين في جثتها وخلقتها ثم يعظم حتى يكون عشر اذرع و يبيض ستين بيضة "

وقال الدميري الذي نشأ في القرن الرابع عشر للميلاد " التمساح من اعجب حيوان الماء لهُ فم واسع وستون ناباً في فكهِ الاعلى واربعون في فكهِ الاسفل و بين كل نابين سن صغيرة مربعة يدخل بعضها في بعض عند الانطباق ولهُ لسان طويل وظهر كظهر السلحفاة لا يعمل الحديد فيهِ ولهُ اربع ارجل وذنب طويل وهذا الحيوان لا يكون الاَّ في نيل مصر وزعم قوم انهُ في بحر السند ايضاً وهو شديد البطش في الماء ولا يُقتل الاَّ من ابطهِ و يعظم حتى يكون طولهُ عشر اذرع في عرض ذراعين واكثر و يفترس الفرس وانثاهُ تبيض في البر فما وقع من ذلك في الماء صار تمساحاً وما بقي صار سلحفاة . ومن عجائب امرهِ انهُ ليس لهُ مخرج فاذا امتلأ جوفهُ بالطعام خرج الى البر وفتح فاهُ فيجيء طائر يقال لهُ القطقاط فيلقط ذلك من فيهِ وهو طائر ارقط صغير يأتي لطلب المطعم فيكون من ذلك غذاء لهُ وراحة للتمساح ولهذا الطائر

في رأسهِ شوكة فاذا اطلق التمساح فاهُ عليهِ نحسهُ بها فيفقههُ . وهو ابدًا يحرك فكهُ الاعلى وفكهُ الاسفل عظمهُ متصل بصدرهِ ومن شأنهِ انهُ يغيب في باطن الماء اربعة اشهر سعدة الشتاء كلهِ "

و يظهر من ذلك ان هيرودوتس كان اعرف بطبائع التماسيح من كل من جاء بعدهُ من كتب في طبائع الحيوان وان هؤلاء الكتّاب زاد جهلهم وبُعدهم عن الحقيقة ببعادهم عن زمانهِ

ومنذ نحو عشرين سنة كان المستر جون كوك صاعدًا في النيل بين الشلال الاول والثاني فرأى كثيرًا من التماسيح على الرمل بجانب النيل و بجانبها كثير من طائر القطقاط المسمّى ايضًا طير التمساح . قال " وكنا في سعة من الوقت نعزمنا ان نراقبها لنرى ما يكون من امرها فلما خيم الليل حفرنا حفرة في الرمل ونزلنا اليها في الصباح واقمنا فيها إلى نحو الظهر وحينئذٍ خرج تمساحان كبيران من الماء واطرحا على الرمل وكأنهما نائما عليهِ وجاءت طير التمساح ترف فوقهما وكانت الفطارة تبدي فرأيت واحدًا منها يدخل فم تمساح وكان مفتوحًا فيطبق التمساح فاهُ عليهِ و يبقى كذلك دقيقة من الزمان ثم يفتح فاهُ فيخرج الطائر منهُ و يمضي إلى حافة الماء ولم نرَ ماذا كان يفعل في الماء أكان يشرب منهُ او ينقيًا فيهِ لان رأسهُ لم يكن متجهًا نحونا . ثم كان يعود إلى فم التمساح و يدخلهُ فيطبق التمساح فاهُ عليهِ دقيقة من الزمان ثم يفتحهُ فيخرج الطائر منهُ و يذهب إلى الماء كما فعل اولاً . وفعل ذلك امامنا ثلاث مرات متوالية وحينئذٍ سددت بندقيتي إلى تلك الطيور فاصبت اثنين منها . ولا يمكنني ان اقول اني اصبت الطائر الذي كان يدخل فم التمساح ولكن الطيور كلها كانت من نوع واحد "

وهذا الطائر هو المسمى الآن بالقطقاط في القاهرة ونواحيها كما سماهُ الدميري واسمهُ العلمي (Hoplopterus armatus) وهو يمشي في وادي النيل ولهُ رجلان طويلتان لكل منهما ثلاث اصابع فقط واعلى رأسهِ اسود وفيهِ قبرة صغيرة وعنقهُ ابيض وكذا اسفل ذنبهِ واسفل بطنهِ مما يلي ذنبهُ ولهُ شوكتان في جناحيهِ وهو بحجم الحجل

و يقول العرب الآن ان التمساح يعمّر سنين كثيرة وان الواحد منهم يجري مجرى حياتهِ التمساح الواحد يتردد على مكان واحد من الشاطئ . وهو يغو ويكبر ما دام حيًا ولا يقتل الاّ اذا اصابهُ الرصاص في دماغهِ او في مخاعهِ الشوكي الذي في رقبتهِ واذا اصابتهُ الرصاصة في كتفهِ غرق في الماء ومات حالاً واذا وقع الرصاص على ترسهِ مخرنًا لقد يرتدّ عنهُ ولكنهُ اذا اصابهُ عموديًا خرقهُ

ومن انواع التماسيح تمساح الهند ويطلق عليهِ المتود اسم ماغار ويوجد في الهند وسيلان وبرما وملقا وجزائرها وغاية ما يصل اليهِ غرباً بلاد السند وبلوخستان وهو يسكن الانهار والبحيرات والبطائح فيقتصر على الماء العذب ولا يدخل الماء الملح ويبلغ طولهُ احياناً ١٨ قدماً وهو اقل شراسة من النوع التالي واذا نضب الماء من البرك التي يكون فيها دفن نفسهُ في طينها وسكن الى ان يقع المطر ثانيةً او رحل على رجليهِ ليلاً الى بركة أُخرى

ومنها تمساح الاجوان ويمتاز بطول خرطومهِ وحرفين عاليين امام عينيهِ ممتدين الى آخر رأسهِ وهو يسكن الانهار التي يمدُّ اليها ماء البحر ويدخل اجوان البحر ويسير في البحر نفسهِ الى بعد شاسع عن الشاطئ . ويكثر في جنوبي الهند وشرقيها الى استراليا ولا يكون في غربي الهند ويكون في سيلان وبرما الى جنوبي الصين وشمالي استراليا وجزائر سليمان وفيجي . ويبلغ طولهُ احياناً ٣٣ قدماً وهو اكبر انواع التماسيح واشدها شراسةً فانهُ كثيراً ما يختطف الانسان ويأكلهُ ولذلك يهتمُّ الناس بصيدهِ للتخلص من شرهِ

ذكرت احدى صحف الهند ان تمساحاً من هذه التماسيح اختطف ولداً فجاءهُ الصيَّاد الى المكان الذي اختطف الولد منهُ حاسباً انهُ يبقى فيهِ بضعة ايام املاً بصيد آخر مثل الذي اصابهُ . ونزل ابنهُ في الماء فلما رآهُ التمساح هجم عليهِ فعاد الولد مسرعاً الى القارب ورشقهُ والدهُ بحربتين اصابت احداها مفرزاً فيهِ وكانت مربوطة بحبل متصل بالقارب فجعل يجري والصيادون يشدون بهِ ثم رموهُ بحربة ثانية اصابت رأسهُ وجروهُ الى الشاطئ ووجدوا سبعة بطنهِ كثيراً من الحلى مما كان على الذين افترسهم

ومنها تمساح سيام وهو يوجد في سيام وكمبوديا وجاوى . والتمساح الدقيق الانف الموجود في اميركا والتمساح الطويل الانف وغير ذلك

ويبيض التمساح عشرين بيضةً الى ستين بيضةً كبيض الاوز حجماً او اكبر قليلاً كما قال هيرودوتس ولهُ قشرة بيضاء صلبة تلقيهِ الامُّ في حفرة في الرمل وتطمرهِ فتخرج فراخهُ بعد ايام ولا يعلم هل تساعدهُ على الخروج من البيض او لا تساعدهُ لكن ذلك معروف في تمساح مدغسكر فوقت البيض هناك من آخر اغسطس الى آخر سبتمبر وعدد البيض غالباً من عشرين الى ثلاثين وعمق الأُدحيّ اي الحفرة التي يوضع فيها قدمان ووسط قاعها مرتفع قليلاً وجوانبها عميقة حتى اذا وضع البيض على وسط القاع تدحرج عدةً الى جوانبهِ فتبيض التمساحة فيهِ وتطمر بيضها بالرمل حتى لا يمتاز ظاهر مطمورهِ عن سائر الارض التي حولهُ وتنام عليهِ وحينما يدنو الوقت لخروج الفراخ من البيض تصوت صوتاً حاداً تسمعها انها وتحفر الأُدحي وتكشف

البيض للهواء فتأخذ الفراخ ثقب البيض بسن يخرج فيها لهذه الغاية ولا تمضي ساعة حتى تخرج من بيضها فتأخذها امها الى الماء حالاً وتسقي بها

وكانت التماسيح كثيرة جداً في العصور الجيولوجية ولم تزل آثارها في الارض الى يومنا هذا

الطاعون

للدكتور مونتاغو لوك

[اطلعنا على مقالة في هذا الموضوع في الجزء الذي صدر في غرة فبراير من مجلة الكتاب التاسع عشر الانكليزية بدأها الكاتب بذكر تاريخ الطاعون وشدته تكثر في البلدان الاوبئة وقتما كان ينتشر فيها ولا سيما سنة ١٣٤٧ اذ مات به في اوربا وحدها نحو خمسة وعشرين مليوناً وهو الوباء الذي وصفه ابو الفداء في تاريخه على ما ذكرناه في المجلد الرابع عشر من المقتطف ونقل فيه

" طاعون روّع وامات وابعد اخبره من الظلمات ما صين عنه الدين ولا مُنع منه حصن حصين سلّ هندياً في الهند واشتد قتل السند وقبض بكفيه وشيك على بلاد ازهاق وكم قصم من ظهر في ما وراء النهر ثم لوقع وتجم وهجم على العجم وترم القرم ورمى الروم بحجر مضاعف وجرّ الجزائر الى قبرس والجزائر . ثم نهر خلقاً بالقاهرة وتنبهت عينه لمصر فاذا هم بالساهرة " الى ان قال

" اسكندرية ذا الوبا يتبع يمدّ اليك ضبعه
صبرًا فحسبك التي تركت من البعين سبعه

ثم يمّم الصعيد الطيّب وابرق على برقة منه صيّب . وغزا غزه وعسقلان هزّه وعكّه الى عكا واستشهد بالقدس وزكى وصاد صيدا وكاد بيروت كيدًا ثم صدّد الرشق الى جبلة دمشق فتربّع ثم وتّد وفتك كل يوم بالف وازيد . وبنى حمص بحلل وصرلها مع علمه ان فيها ثلاث علل ثم طلق الكنة في حماه فبرد عاصيها من حماه " وحماة موطن ابي الفدا فقال في خطابه

" يا ايها الطاعون ان بحماة من خير البلاد ومن اعز حصونها
لا كنت حين شممتها لحمتها ولثمت ذاها آخذًا يقرونها "

وذكر الكاتب الانكليزي لما ورد الاوبئة التي فشت في اوربا الى ان تلاشت من الكلترا